﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾

[الشعراء: 192 - 195]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من سردِ قصص الاعتبارِ إلى كتابِ الاعتبار

بعد سرد القصص السّابقة، والتّعقيبِ على كلِّ قصة، انتقل السّياقُ للتّنويه بشأن القرآن، فإنَّه المعجزة الباقية التي لا تُضاهيها أيُّ معجزة؛ لا سيما أنَّه المعجزةُ التي كذَّب بها المشركون، ولم ينزل عليهم عذابٌ منَ الله بسبب تكذيبهم كما نزل على السّابقين، فهو انتقالٌ منَ القصص التي سيقت بغرضِ الاعتبار، إلى ذكر ما يجب أن يُعتبر به، وهو القرآن الكريم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلرُّوحُ﴾: (روح) أَصْلٌ كَبيرٌ مُطَّرِدٌ يَدُلُّ على سَعَةٍ وفُسْحَةٍ واطِّرادٍ، وأَصْلُ ذَلِكَ كُلِّه الرّيحُ؛ وأَصْلُ الياءِ في الرّيحِ الواوُ، وإِنَّما قُلِبَتْ ياءً لِكَسْرَةِ ما قَبْلَها، فالرّوحُ روحُ الإِنْسانِ، وإِنَّما هوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الرّيحِ، وكَذَلِكَ البابُ كُلُّهُ، والرّوحُ: جَبْرَئيلُ عليه السلام؛ قالَ اللهُ جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ وهو أمين وحي السّماء[1].

2) ﴿ٱلۡمُنذِرِينَ﴾: (نذر) كَلِمَةٌ تَدُلُّ على تَخْويفٍ أَوْ تَخَوُّفٍ؛ ومنه الإِنْذارُ: الإِبْلاغُ، ولا يَكادُ يَكونُ إِلّا في التَّخْويفِ، وتَناذَروا: خَوَّفَ بَعْضُهُم بَعْضًا[2]، والإنذار: تخويفٌ مع إعلامِ موضع المخافة، من قولك: نذرتُ بالشّيء إذا علِمته فاستعددت له؛ فإذا خوّف الإنسانُ غيرَه وأعلمه حالَ ما يخوِّفه به: فقد أنذره، وإن لم يُعلِمه ذلك لم يُقل

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (روح).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).

أنذره، والإنذار إحسانٌ منَ المُنذِر، وكلّما كانت المخافة أشدَّ كانت النّعمة بالإنذار أعظمَ؛ ولهذا كان النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أعظمَ النّاس منّةً بإنذاره لهم عقابَ الله تعالى، والإنذار لا يكون إلّا بالزّجر عن القبيح وما يعتقد المنذرُ قبحَه[1].

3) ﴿بِلِسَانٍ﴾: (لسن) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ على طولٍ لَطيفٍ غَيْرِ بائِنٍ، في عُضْوٍ أَوْ غَيْرِه، مِنْ ذَلِكَ: اللِّسانُ، مَعْروفٌ، وهوَ مُذَكَّرٌ، والجَمعُ أَلْسُنٌ، فإذا كَثُرَ فهيَ الأَلْسِنَةُ، ويُقالُ لَسَنْتُهُ، إذا أَخَذْتَهُ بِلِسانِكَ، واللَّسَنُ: جَوْدَةُ اللِّسانِ والفَصاحَةِ، واللِّسْنُ: اللُّغَةُ، يُقالُ: لِكُلِّ قَوْمٍ لِسْنٌ أَيْ لُغَةٌ[2]؛ والمقصود باللّسان في قول الله تعالى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾: اللّغةُ، بدليل وصفه بالعربيّة والإبانة.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أفضليّة التّنزيل والـمُنـزِل به والمنزَل عليه

تُبيِّن الآيات أنَّ القرآن الكريم إنَّما هو تنزيلُ ربِّ العالمين، نزل به جبريلُ عليه السلام على قلب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، بغرض جعله آلةَ الإنذار، لعبادة ربِّ العباد، وقدِ اختار سبحانه العربيَّةَ لغةَ القرآن، لِما تحويه من قوَّة البيان، وبراعةِ الفصاحة، وجمالِ البلاغة؛ فهي حجَّة الله على عباده، ومعجزةُ الإسلام الخالدة.

وقدِ اجتمعت في هذه الآيات أعظمُ الأوصاف لكتاب الله عزّ وجلّ، حيث وصفت أفضل الكتب وهو القرآن الكريم، فجعلته أوّلًا تنزيلًا منَ الله ربِّ العالمين، ثمّ خصّصت مَن نزل به، وهو أمين وحي السّماء عليه السلام الذي هو أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل بَضعة فيه، وهي قلبه، الذي نقّاه الله من حظّ الشّيطان، على أفضل أمّة أُخرجت للنّاس، بأفضل الألسنة وأفصحِها، وأوسعِها، وهو اللّسانُ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 78.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لسن).

العربيّ المبين[1]؛ واختارتِ الآياتُ أشرف الألفاظ وأقواها وأظهرها، توافُقًا مع مقام كتاب الله جلّ شأنُه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ عطفِ الآية على ما سَبق:

القرآنُ قطعةٌ واحدةٌ، مهما تباعدت جمَلُه، وطالت آياته

لمّا بدأ النّظمُ الكريم قصصَ الأنبياء في السورة المباركة، وشرع في عَدِّ آياتٍ على صِدْقِ الرَّسولِ ﷺ بذِكْرِ عَواقِبِ المُكَذِّبينَ بِرُسُلِهم: ناسب أن يختم بما بدأ به أوّلَ السّورة، وهو التّأكيدُ على صدق نبوَّته ﷺ وصدقِ القرآن، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فبِواوِ العَطْفِ اتَّصَلَتِ الجُملَةُ بالجُمَلِ الَّتي قَبْلَها، وبِضَميرِ القُرْآنِ في قوله ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ اتَّصَلَ غَرَضُها بِغَرَضِ صَدْرِ السّورَةِ[2]؛ وكَأَنَّهُ عادَ أَيْضًا إِلَى ما افْتَتَحَ به السّورَةَ مِنْ إِعْراضِ المُشْرِكينَ عَمّا يَأْتيهِم مِنَ الذِّكْرِ، ليَتَناسَبَ المُفْتَتَحُ والمُخْتَتَمُ[3]، فوُصِل بين هذه الآية وما سبقها من مفتتح السورة الكريمة إيذانًا بأنّ ما ذُكر إنّما ذُكر تسريةً وتسليةً لرسول الله ﷺ، واستدلالًا على صدقه وصدق القرآن.

بلاغةُ التَّأكيد في الآية:

ردُّ الإنكار ودحضُ الجَحد من وظائف التَّوكيد

التَّأكيدُ بـ(إنَّ) ولامِ الابْتداءِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لِرَدِّ إِنْكار المُنْكِرينَ[4]، ودَحضِ جَحد الجاحدين، من مشركي مكّة وغيرهم الذين ادَّعَوْا أنّ القرآن من كلام محمّد، وذلك مُشارٌ إليه في أوّل السّورة: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ۝٥ فَقَدۡ كَذَّبُواْ﴾ [الشعراء: 3 - 6]؛ فغرضُ التَّأكيدِ على بابه في الرَّدِّ على المنكرين المكذِّبين.

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 597.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 102.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 188.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 188.

نكتةُ عودِ ضميرِ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ على غير مذكور:

شهرةُ شأنِ القرآن لم تُحوِج إلى التّصريحِ به

الضَّميرُ في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ عائدٌ على القُرْآنِ، أَي: إِنَّهُ لَيْسَ بِكَهانَةٍ ولا سِحْرٍ، بَلْ هوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ[1]، ورجع الضّمير إلى القرآنِ، مع عدم ذكره قريبًا: لشهرة شأنِه، وفرَط تعيّنه؛ وهذا يدلُّ على فخامة شأنِه، وأنَّه منَ الظّهور بحيث لا يخفى عند جميع المخاطَبين، المؤمنِ منهم والكافرِ.

غرضُ استعمال مصدر التّنزيل:

المبالغةُ في الوصف، حتّى كأنّ المُنزَّل نفسُ التّنزيل

جاء الإخبار عنِ القرآن بلفظ التّنزيل في قول الله تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ - والتَّنْزيلُ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى المَفْعولِ - لِلْمُبالَغَةِ في الوَصْفِ، حَتَّى كَأَنَّ المُنَزَّلَ نَفْسُ التَّنْزيلِ[2]، فوصفه بأنَّه (تنزيلٌ)، مع أنَّه (مُنزَّلٌ): أبلغ من أن يقال: (منزّل ربِّ العالمين)، مبالغةً في التّنويه بشأن القرآن، وتشريفًا وتعظيمًا لكتاب الله، وإيجازًا في العبارة.

بلاغةُ التّعبير بالتّنزيل دون الإنزال:

نُزولُ القرآنِ مُفرَّقًا دليلٌ بيِّنٌ على الحكمة والعلم

التّعبيرُ بـ﴿لَتَنزِيلُ﴾ مصدرًا للفعل المضعَّف (نزَّل) في قول الله تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، دون المصدر (إنزال) للفعل (أَنزَل): للإشارةِ إلى ثِقَلِ القُرآنِ وهو يتنزَّلُ على رسولِ الله ﷺ؛ وهذا ما يتوافقُ مع ما كان يحدُثُ لرسولنا الكريم من تعرُّقٍ وقتَ نُزولِ الوحْيِ لِثِقَلِه عليّه، ومِمّا يُفيدُه التَّضعيفُ كذلكَ: نزولُ القُرآنِ الكريمِ مُفرَّقًا في أوقاتٍ مُتعدِّدةٍ، لتثبيتِ فؤادِ النَّبيِّ ﷺ، حيثُ لم يَنزِلْ جُملةً واحدةً.

فائدةُ إضافةِ ﴿لَتَنزِيلُ﴾ إلى ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

ما كان مِنَ الله فهو شريفٌ عظيم

أفادت الإضافةُ في قولِه تعالى: ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وهي بمعنى (مِن)، أي: (تنزيلٌ مِن ربِّ العالمين): صلاحيّةَ هذا التّنزيل، ليكون

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 188.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 188.

دستورًا لجميع العالمين، حيث نزّله ربُّ العالمين موافقًا لقدراتهم، نافعًا لهم في أمر دينهم ودنياهم وآخرتهم، وهو ربُّهم وأعلمُ بهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: 14]؛ مع ما في الإضافة منَ التَّشريف والتَّعظيم لهذا القرآن، والإيجاز في العبارة.

مناسبةُ اختيارِ عنوان الرّبوبيَّة:

تنزيل القرآن من معالم ربوبيّته سبحانه

آثر النَّظمُ عنوانَ الرّبوبيّة في قوله تعالى ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ للإيذانِ بأنَّ تنزيلَه من أحكامِ تربيته تعالى ورحمته بالعالمين؛ فهو المُنَزِّل، وهو الرّبّ، والرّبُّ أعلَم بما يُصلِح خلقَه وعباده، ومِن ثمّ نزّل القرآنَ دستورًا لهم، يضمن لهم صلاحَ الدّين والدّنيا.

معنى تعريف ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

التَّعريف في لفظ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ للجنس، أي جنسِ العالمين؛ ليشمل بذلك عالَمَي الجنّ والإنس، وهم المخاطَبون بالتّكليف.

علَّةُ فصل الآية:

احتمالُ كمال الاتّصال وشبهه

جاء قولُ الله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ مفصولًا عمّا قبله، ويمكن توجيهُ الفصل بأنّ الجملة صفةٌ لـ﴿لَتَنزِيلُ﴾[1]، فالقرآن تنزيلٌ موصوفٌ بأنّه ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾، ويجوز أن تكون الجملة خبرًا ثانيًا لـ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، فيكون من تعدّد الخبر، تعظيمًا لشأنِ القرآن بتعدّد الخبر عنه؛ وحينئذٍ يكون الفصل داخلًا في باب الفصل بين المفردات، حيثّ إنّ الجملة في محلِّ رفع خبرٍ ثانٍ لـ(إنَّ).

ويحتمل الفصلُ أن يكون استئنافًا بيانيًّا، لتكون الآيةُ جوابَ سؤالٍ تقديرُه: مَن نزل بالقران، وعلى من نزل؟[2] فجاءت جملة ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ بمثابة الجواب عن هذا السؤال المقدَّر في النّفس، ففُصلت عن سابقتها كما يُفصل الجوابُ عنِ السؤال؛

(1) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 7/ 137.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 188.

وسرّ الفصل هو شِبهُ كمال الاتّصال، والفصل هنا يستقصي الهواجسَ النّفسيّةَ والمعانيَ والخواطر التي تجول بقلب المخاطَب، لتأتي إجابتُها في الجملة التالية.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿نَزَلَ﴾:

النزول الجمليّ هو النزول الأول إلى السماء الدنيا

لمّا كان النّزول دفعيًّا، والتّنزيل للتّدريج، عبّر هنا بالفعل ﴿نَزَلَ﴾ الذي مصدره النّزولُ؛ ليدلّ على نزوله دفعةً واحدةً ليلةَ القدر منَ اللوح المحفوظ إلى سماء الدّنيا، ثمّ نزل بعد ذلك مفرَّقًا منجّمًا على النّبي صلّى الله عليه وآله وسلَّم في ثلاث وعشرين كما وردت به الرّواياتُ[1].

نكتةُ مجيء الفعل ﴿نَزَلَ﴾ ماضيًا:

الوعدُ بنزول القرآن الكريم كلِّه

لمّا كان القرآنُ ينزِل تدريجيًّا كان التّعبير بصيغة الماضي ﴿نَزَلَ﴾ في قول الله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾، دون أن يقال (يَنزِل)، وهذا من مجيء الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر؛ لأنَّ الآية الكريمة نزلت والقرآن ما زال يتنزَّل؛ ونكتة ذلك: الوعدُ الضِّمنيّ باكتمالِ نزولِ القرآنِ على قلب رسولِ الله ﷺ، فإنَّ الإخبار عنِ النّزول هو لا باعتبار ما نزل فحسب، بل باعتبار ما نزل وما سينزلُ، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1].

قَرَأَ نافِعٌ وابْنُ كَثِيرٍ وأَبو عَمرٍو وحَفْصٌ وأَبو جَعْفَرٍ بِتَخْفِيفِ زايِ ﴿نَزَلَ﴾ ورَفْعِ ﴿ٱلرُّوحُ﴾: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾، وقَرَأَ ابْنُ عامِرٍ وحَمزَةُ والكِسائيُّ وأَبو بَكْرٍ عَنْ عاصِمٍ ويَعْقوبُ وخَلَفٍ ﴿نَزَّلَ﴾ بِتَشْدِيدِ الزّايِ ونَصْبِ ﴿ٱلرُّوحَ ٱلۡأَمِينَ﴾: ﴿نَزَّلَ بِهِ ٱلرُّوحَ ٱلۡأَمِينَ﴾، أَيْ: نَزَّلَهُ اللّهُ بِهِ[2]، والقراءة الأولى جعلت جبريل عليه السلام فاعلًا، فهو

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 79.

(2) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 165، وابن الجزري، النشر: 2/ 336، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 188.

أمينُ وحي السَّماء، والواسطةُ بين الله ورسوله، وعلى القراءة الثانية فاعلُ التّنزيل هو الضّمير المستتر العائد على الله تعالى، وهي تجعل تكليفَ التّنزيل أمرًا مباشرًا وتكليفًا منَ الله لجبريل ﷺ؛ وفي هذا اهتمامٌ بشأن القرآن الكريم، والقراءتان أفادتا أنَّ الإنزال ابتداءً كان بأمر الله تعالى، وأنّ جبريل هو من تولَّى ذلك.

دلالةُ الجارّ والمجرور في: ﴿بِهِ﴾ ومعناه:

نـــزولُ جبريـل مُصاحِبٌ لنزولِ القرآنِ

الباءُ في قَوْلِه تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ لِلْمُلابسةِ والمصاحبة[1]، أي: مصاحبًا له؛ وهي تدلُّ على أنَّ نزوله بالقرآن كان وظيفةً خاصّةً بأمين الوحي جبريل ﷺ، والجارّ والمجرور في موضع الحال، وهي حالٌ مقيِّدٌ لعاملِه؛ فالنّزول ملتبس بالقرآن مصاحبٌ له لا يفارقه.

فائدةُ تقديم شِبه الجملة ﴿بِهِ﴾:

قدَّم النَّظم الكريم الجارَّ والمجرور ﴿بِهِ﴾ من قوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ على ما هو فاعلٌ في قراءة الرّفع، ومفعولٌ في قراءة النّصب؛ لأنّ القرآن هنا محطُّ الاهتمام؛ فقدَّمه لكون ذكرِه أهمَّ، فهو محورُ الحديث، ومرتكزُ الكلام.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلرُّوحُ﴾:

الـقـرآنُ يُحيي الـقـلـوبَ المـواتَ ويُـنـهـض النُّفوسَ الفواتَ

﴿ٱلرُّوحُ﴾ من قول الله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ هو جبرئيل ﷺ، وهوَ لَقَبُهُ في القُرْآنِ، سُمّيَ روحًا لِأَنَّ المَلائِكَةَ مِنْ عالَمِ الرّوحانيّاتِ، وهيَ المُجَرَّداتُ[2]، ولما ينزل به منَ القرآن الكريم الذي هو روحٌ للنّاس، فهو مصدرُ الإحياء بعد موت القلوب والنّفوس؛ فهي تسميةٌ ملحوظٌ بها الأصلُ، والمآل.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 188.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 188.

نكتةُ الوصفِ بصفة ﴿ٱلۡأَمِينُ﴾:

صـفـةُ الأمـين هي مرتكزُ أداءِ الرسالة

الأَمينُ من قول الله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ صِفَةُ جِبْريلَ عليه السلام؛ لِأَنَّ اللهَ أَمنه على وحْيِهِ[1]، وفي الوصف إشارةٌ إلى كونه معصومًا من كلِّ دَنَس، فلا يمكن منه خيانةٌ[2]؛ لأنَّ الموضع موضعُ أداء الأمانة وهي الرّسالة؛ فالوصف قطعٌ لألسنة المتقوِّلين على الرّسول والقرآن والوحي.

دلالةُ التَّعبير بصيغة ﴿ٱلۡأَمِينُ﴾:

أمـانـة الـرسـول مـبـعـث عـلى اطمئنان المرسل إليه

صفةُ ﴿ٱلۡأَمِينُ﴾ من قول الله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ على وزن (فَعيل)، فهي صيغةُ مبالغةٍ؛ والمرادُ منها: المبالغةُ في اتِّصافه عليه السلام بصفةِ الأمانة، في إيصال الوحي، دون زيادة أو نقصان.

بلاغةُ استعمالِ حرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾:

نزولُ القرآن على قلب المصطفى تمكُّنٌ راسخ

حرف ﴿عَلَىٰ﴾ استُعمل في قول الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ لِلاسْتِعْلاءِ المَجازيِّ؛ لِأَنَّ النُّزولَ وُصولٌ مِنْ مَكانٍ عالٍ فهوَ مُقْتَضٍ اسْتِقْرارَ النّازِلِ على مَكانٍ، ومَعْنَى نُزولِ جِبْريلَ على قَلْبِ النَّبيّ عليه السلام: اتِّصالُهُ بقوَّةِ إدْراكِ النَّبيِّ لإلْقاءِ الوَحْيِ الإلَهيِّ في قوَّتِه المُتَلَقّيَةِ لِلْكَلامِ الموحَى بِأَلْفاظِه؛ ففِعْلُ ﴿نَزَلَ﴾ حَقيقَةٌ، وحَرْفُ ﴿عَلَىٰ﴾ مُسْتَعارٌ لِلدّلالَةِ على التَّمَكُّنِ مِمّا سُمّيَ بِقَلْبِ النَّبيِّ[3].

بلاغةُ المجازِ المُرسَل في ذكر القَلب:

الـقـلـبُ محـلُّ الوعي والتَّثبيت والحفظ

آثر النّظمُ ذِكرَ القلب في قوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ دون أن يُقال (عليك)، من باب المجاز المرسَل، بإطلاق الجزء وإرادة الكل؛ لِأَنَّ القلبَ مَحَلُّ الوَعْيِ والتَّثْبيتِ، ولِيُعْلَمَ أَنَّ المُنَزَّلَ على قَلْبِه عليه السلام مَحْفوظٌ، لا يَجوزُ عليْه التَّبْديلُ ولا التَّغْييرُ[4]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 188.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 96.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 189.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 188.

وقد أُسقِطَت الواسطةُ إشارةً إلى أنّه - لشدّة إلقائه السّمعَ وإحضاره الحِسَّ - يصير في تمكُّنه منه بحيث يحفظُه فلا ينسى، ويفهمُه حقَّ فهمه فلا يخفى؛ فدخوله إلى القلب في غاية السّهولة، حتّى كأنّه وصل إليه بغير واسطة السّمع، عكس ما يأتي عنِ المجرمين، وهكذا كلُّ من وعى شيئاً غايةَ الوعي يحفظُه كلَّ الحفظ[1].

دلالةُ الإضافة في ﴿قَلْبِكَ﴾:

قـلـبُ رسـولِ الـلـه أشـرفُ القلوبِ وأعلاها وأضـبـطُـهـا وأوعاها

أضيف لفظُ القلب إلى الكاف في قول الله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، وهي خطابٌ للنّبيّ ﷺ، أي: على قلبك يا محمّد، الذي هو أشرفُ القلوب وأعلاها، وأضبطُها وأوعاها، فلا زيغَ فيه ولا عِوَج[2]؛ فهي إضافة تشريفٍ وتعظيمٍ لقلب رسول الله، الذي هو قطعةٌ منه.

نوعُ لامِ ﴿لِتَكُونَ﴾ ودلالتُها:

تعليلُ النّزول بيانٌ لوظيفةِ الرّسول

اللّام في قول الله تعالى ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ لتعليل ما سبق، أي: نزل القرآن لتكونَ منَ المُنذِرين المُخَوِّفين المُحَذِّرين لمن أعرض عنِ الإيمان، وفَعلَ ما نُهيَ عنه منَ العصيان[3]، فاللّام للتّعليل، أي تعليلِ النّزول على قلب النّبيّ ﷺ؛ لأنَّ الإنذار يكون بعد حفظه، فهي عِلَّةٌ في التَّنْزيلِ أَوِ النُّزولِ؛ واقْتُصِرَ على ذكر الإنذار؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَزْجَرُ لِلسّامِعِ، والمقام مقامُ تخويف وتحذير[4].

نكتةُ التّعبيرِ بفعل الكون ﴿لِتَكُونَ﴾:

الإيـمـاءُ إلى أصالة اتِّصافه ﷺ بـصـفـةِ النَّذارة

استعمل النّظم الكريمُ فعلَ الكَون في قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ للإشعارِ بأنَّ وصف الإنذار صفةٌ ملازِمةٌ لرسول الله

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 97.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 96.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 97.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 188.

ﷺ، أي: الاتّصاف على جهة الجبلَّة والوصف اللّازم؛ فهو ﷺ منذِرٌ أصالةً بتحذير النّاس منَ الشَّرِّ، وتنبيههم على مواضع الباطل.

نوعُ ﴿مِنَ﴾ وبلاغتُها:

رسولُ الله درّةُ قلادةِ سائر المنذرين

آثر النّظمُ الكريم أن يأتي وصفُ النّبيّ ﷺ بجعله من جملةِ المنذِرين باستعمال حرف ﴿مِنَ﴾ الدّالّ على التّبعيض في قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾، دون أن يُقال: (لتكون منذرًا)؛ وذلك للإشعار بانتظامه ﷺ في سلك أولئك المشهورين بتلك المزيّةِ الجليلة، والمنقبةِ الفاضلة، المذكورين في قصص السّورة الكريمة؛ وهي الرّسالةُ الإلهيّة بالإنذار، فهو واحدٌ منهم، سائرٌ على منهجهم، وهذا التّبعيضُ يدلّ على اتّفاق جميع الأنبياء على منهج التّوحيد وأصل العبوديّة.

معنى تعريفِ ﴿ٱلْمُنذِرِينَ﴾:

منهج الأنبياء واحد، ورسالتهم واحدة

دلّت (أل) الدّاخلةُ على لفظِ المنذِرين من قول الله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ على العهد الذّهنيّ؛ فأنبياء الله معهودون معروفون بمنهجهم القويم، ودعوتِهم إلى الإصلاح في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

دلالةُ التّعبيرِ باسم الفاعل ﴿ٱلْمُنذِرِينَ﴾:

الوصفُ المشتقّ (منذِرٌ) في قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ اسمُ فاعلٍ من (أنذر)، وهو جامعٌ للاسميّة الدّالّةِ على الثّبات، والفعليّةِ الدّالّة على التّجدّد والاستمرار.

مناسبةُ الاقتصارِ على الإنذار دون التّبشير:

انتقاءُ الألفاظ معذوقٌ بمقصد السورة وسياقِها

اقتصر النّظمُ الكريم على ذكر الإنذار دون التّبشير في قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾، وذلك لِأَنَّه أَخَصُّ بِغَرَضِ السّورَةِ، فإنَّها افْتُتِحَتْ بِذِكْرِ إِعْراضِهم وإِنْذارِهم[1]؛ والمقامُ مقامُ زجرٍ وتخويف وبيانٍ لعلّة نزول القرآن، وكَبْح جِماح النّفس عنِ الشّهوات

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 196، 197.

أشقُّ على المسلم من حثّها على الطّاعات، والزّمن الذي نزلت فيه السّورة كان الشّركُ طامًّا، والكفرُ مسيطرًا، فناسب ذكرَ الإنذار مراعاةً لِما عليه غالبُ حال الناس.

بلاغةُ التّعريضِ في ذكر الإنذار:

الإنـذار يستلزمُ وقوعَ المنذَر منه

قولُ الله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ فيه تعريضٌ بتقرُّرِ وقوعِ العذاب المنذَرِ به إن لم يؤمنوا بالقرآن وبنبوّة سيّدنا محمّد ﷺ، إيذانًا بأنَّهم في ذلك ليسوا بدعًا ممَّن سبقهم؛ فإنَّ الإنذار يستلزمُ وقوعَ المنذَر منه، وهو هنا عذاب الله تعالى في الدّارَين.

توجيهُ تعلُّقِ الجارّ والمجرور ﴿بِلِسَانٍ﴾:

عـربيّـةُ الـقـرآن إقـامـةٌ للحجّة عـلى المخاطَبين من قريش

يحتمل أن يكون الجارُّ والمجرورُ ﴿بِلِسَانٍ﴾ في قول الله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ متعلّقًا بالفعل ﴿نَزَلَ﴾، ليدلَّ على أنّ رسول الله ﷺ كان يتلقّى من جبريل كلامَ الله بحروفٍ عربيّة، أي: نزل جبريل عليه السلام على قلب المصطفى بلسان عربي مبين؛ ولمّا كان القصدُ منَ السّورة التّسليةَ عن عدم إيمانهم بأنّه لسُفولِ شأنهم، لا لخللٍ في بيانه، ولا لنقصٍ في شأنه، قال تعالى موضِّحًا: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾[1]، ويحتمل أن يكون متعلِّقًا باسم الفاعل ﴿ٱلْمُنذِرِينَ﴾، أي: لتكون منَ الذين أنذَروا بهذا اللّسان، ليُقيم الحجَّة البالغة عليهم فلا عذرَ لهم.

بلاغةُ التّقديم والتّأخير:

تقديمُ مواضعِ الاهتمام أرسخُ في قدْحِ الأذهان

على القول بتعلُّقه بفعل النّزول أوِ التّنزيل، أُخِّر شِبهُ الجملة ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ في النّظم الكريم، وقُدِّم ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، فقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾، ولم يجئِ النّظم: (نزل به الرّوح الأمين بلسانٍ عربيّ مبين على قلبك لتكون من المنذرين)، للإشعار بأنَّ محطّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 97.

النّظر وابتداءَ الأمر في ذكر الحالةِ الأهمِّ والأخصِّ بأن يكون تنزيلُه على قلب رسول الله ﷺ ليحفظَه ويَعيَه، ثمّوصفُ حالةٍ أخرى له، وهي أن يكون بلسان عربي مبين، بعد أن حفظه رسول الله ووعاه.

التّأخيرُ للتّصريح بعد التّضمين، والإجلاء بعد الإخفاء

كما أنَّ النّزول على قلب سيّدنا رسول الله ﷺ لدلالته على فهمه ووعيه وحفظه يقتضي أن يكون بلسانٍ عربيٍّ مبين، فلو نزل بلسان أعجميٍّ لكان نازلًا على سمع رسول الله ﷺ دون قلبه؛ فيكون ذكر اللّسان العربيّ المبين تصريحًا بما عُلم ضمنًا، لأهميَّة هذا الوصف، فهو مدحٌ للّسانِ العربيّ، ولتوكيد مقتضاه، من بلوغ رسالة الإنذارِ المخاطَبين بها منَ العرب.

رسالةُ المنذِرين واحدةٌ، وإن تعدّدت لغاتُهم

وفي تأخير شِبه الجملة فائدةٌ أخرى، هي الاعتناء بأمر الإنذارِ، والإيماءُ إلى أنَّ مدارَ كونِ الرّسول من جُملة المنذِرين المذكورينَ عليهم السلام: مجرّدُ إنزال القرآن عليه، لا إنزالُه باللّسان العربيِّ؛ فلغاتُ الرّسُلِ المُنذِرين متعدّدة، لكنَّ رسالةَ الدعوة إلى التّوحيد والإنذارِ منَ الشِّرك واحدةٌ[1].

بلاغةُ المجاز المرسَل في ذكر اللّسان:

بيانُ القرآن لسانَ ذَلِقٌ، تُسابق معانيه ألفاظَه

لفظُ اللّسان في قولِ الله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ مجازٌ مرسَلٌ، علاقته الآليّة، حيث ذُكِرت آلةُ النّطق وهي اللّسان، وأريد المنطوقُ وهو اللّغةُ؛ ونكتةُ ذلك هو المبالغة في بيان القرآن وتصويره.

نكتةُ الجمعِ بين وصفَيْ ﴿عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾:

الإبانةُ صفةُ القرآن، وخصّيصتُه التي امتاز بها

يحتمل أن يكون الوصفان بالعربيّة والإبانة في قول الله تعالى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ لموصوفٍ واحد وهو (اللّسان)، ويحتمل أن تكون صفة العربيّة تقييدًا للّسان، وصفةُ الإبانة تقييدًا لصفة ﴿عَرَبِيٍّ﴾؛ فلمّا كان في العربيّ ما هو حوشيٌّ لفظًا أو تركيبًا، مشكِلٌ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 335، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 189، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 264.

على كثير منَ العرب، قال: ﴿مُّبِينٍ﴾ أي بيِّنٌ في نفسه، كاشفٌ لما يُراد منه، غيرُ تاركٍ لبسًا عند من تدبّره[1].

دلالةُ صيغة ﴿مُّبِينٍ﴾ بين اللّزوم والتّعدية:

إبـانـةُ الـقـرآن ذاتيَّة ومتعدّيةٌ لغيرِها

﴿مُّبِينٍ﴾ من قول الله تعالى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ اسمُ فاعلٍ من (أَبانَ)، يأتي لازمًا ومتعدّيًا، والمعنى على اللّزوم: (بَيِّنٌ) في نفسه، كاشِفٌ لما يُراد منه، غيرُ تاركٍ لبسًا عند من تدبَّره، على ما تتعارفه العرب في مخاطباتها من سائر لغاتها بحقائقها ومجازاتها، على اتّساع إرادتها وتباعُد مراميها في محاوراتها، وحُسنِ مقاصدها في كناياتها واستعاراتها، ومن يحيط بذلك حقَّ الإحاطة غيرُ العليم الحكيم الخبير البصير[2]؟! والمعنى على التّعدية: مُبينٌ لغيره طريقَ الحقِّ من الباطل، والنّورِ من الظّلام.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿مُّبِينٍ﴾:

الإيـمـاءُ إلى اشـتـمـالِـه على أسبابِ الصِّدقِ والحقِّ

وفي الوصف بالإبانة في قول الله تعالى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ إيماءٌ إلى أنَّه بنفسِه دليلٌ على حقّيَّته وصدقِه وكونِه من عند الله تعالى، وأنَّ ذلك من الوضوح والظهور بمكانٍ، بحيث لا يحتاج دليلًا عليه، ولا برهانًا بين يديه[3]؛ ومن ثمَّ فلا حجَّة لكم في الإعراض عنه وعدم الإيمان به.

نكتةُ تقديمِ وصف ﴿عَرَبِيٍّ﴾ على ﴿مُّبِينٍ﴾:

كـمـالُ العربيّة لـم يـكـن إلّا بالقرآن، وإبانةُ القرآن لا تكون إلّا بالعربيّة

قُدِّم وصف ﴿عَرَبِيٍّ﴾ على وصف ﴿مُّبِينٍ﴾ ليدلَّ على شرَف هذه الأمّة وقوَّة فصاحتها، حيث نزل القرآن بلسانهم، كما أنَّ فيه تخصيصًا بعد التَّعميم، بتأخير الوصف ﴿مُّبِينٍ﴾، ولو قُدِّم لاحتمل أن يكون مُبينًا بغير العربيّة؛ فدلَّ تقديم ﴿عَرَبِيٍّ﴾ على كمال العربيّة وشرفِها بين اللغات، فهو من باب وصف العامِّ بالخاصِّ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 97.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 98، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 190.
(3) ابن التّمجيد والقونوي، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 312.

بلاغةُ التّعريضِ في ذِكر عربيّة القرآن وإبانتِه:

قوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ فيه تعريضٌ بالمشركين، وتقريعٌ لهم بأنَّ الّذي حملهم على التّكذيب هو الاستكبار والعناد، وليس عدمَ الفهم؛ لأنَّ القرآن نزل بلغتِهم، وهو واضحٌ مُبين، فلا عذرَ لهم في الإعراض عنه؛ كما أنَّ فيه تعريضًا لكلِّ من لم يؤمن بالقرآن، بأنَّه لا عذرَ له بعد قيام الحجّة، ووضوحِ البرهان.

إعـــــراضُ المشركين بسبب استكبارهم، لا لِعَدَم فهمِهم

غرضُ تنكير ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾:

جاءت الألفاظ الثّلاثةُ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ نكرةً للتّعظيم والتّفخيم، وإشارةً إلى أنّه نزل بأعظمِ لغة لأشرفِ أمّة، وبلَغ غايةَ الإفصاح والإبانةِ والوضوح.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإبانةُ والظّهورُ والبدوُّ:

الظّهور يكون بقصد وبغير قصد، تقول: استتر فلان ثمّ ظهر، ويدلُّ هذا على قصده للظّهور، ويُقال: ظهر أمرُ فلان وإن لم يقصد لذلك؛ فأمّا قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [الروم: 41] فمعنى ذلك الحدوثُ، وكذلك قولك ظهرتْ في وجهه حمرةٌ، أي: حدثت، ولم يُقصدْ أنّها كانت فيه فظهرت.

الإبانةُ الإفصاح، والـبـدوُّ يـكـون بـغـيـر قـصـد، والظّهورُ بقصدٍ وبغير قصد

أمّا البدوُّ فهو لِما يكون بغير قصد، تقول: بدا البرق، وبدا الصّبحُ، وبَدَتِ الشّمسُ، وبدا لي في الشّيء، لأنّك لم تقصد للبُدوِّ[1]، وأمّا الإبانة فهي الوضوح والظّهور والإفصاح؛ ففيها معنى الفصاحة، بخلاف البدوِّ والظّهور، وتستعمل الإبانةُ مع اللّسان والقول، لذا ناسب أن يوصف اللّسانُ بالمبين في قول الله تعالى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 343، 344.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والثلاثون،
سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 39 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-84-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 39 : المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-84-6
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8468153 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»